الدين بوصفه مصدراً للهداية والسكينة

عبد الرحمٰن السالمي

تقوم الحياة الإنسانية على الأمن والكفاية: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: 4]. ولنذكر الآية الكريمة التي تعدّد نعمة الله على المسلمين: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأنفال: 26]؛ فهما عمودان: عمود الأمن، وعمود الكفاية أو الرزق من الطيّبات. وهذان المعنيان يتكرّران عشرات المرات في القرآن والسُّنَّة بصيغٍ مختلفة؛ بحيث يتوجّه الأمر إلى عدِّهما التأثير الرئيس للدين في حياة الأفراد والجماعات.

يبدأ الأمر بالدعوة والاهتداء إلى أنه سبحانه وتعالى هو الخالق والرازق، وهو الحامي والمحتضن؛ فالهداية تعني ـ أول ما تعني ـ إفراد الله سبحانه وتعالى بالخلق والرزق والأمن، وعندما يحصل ذلك ـ بل خلال حصوله ـ تسود حالة السكينة التي تطمئن الإنسان المؤمن إلى ربه ونفسه ومحيطه، وترافق ذلك بالطبع مساعي المرء ذاته لدعم أمنه الذاتي، والرزق من الطيبات. فلدينا ـ من جهةٍ ـ المأكل والملبس

والمسكن، ولدينا ـ من جهةٍ ثانيةٍ ـ صنع الجوار القريب في الجماعات الأولى، والبعيد والشاسع عندما تتحوّل الجماعات إلى مجتمعات. وعندما يتحدث القرآن عن السكن والسكينة؛ فإنها تكون نتاجاً لهذين العنصرين الرئيسين وتوابعهما، كما تدل على ذلك السياقات التي ترد فيها آيات الأمن وآيات عيش المؤمن الهانئ والصالح.

وهكذا فإنّ الارتباط بين الهداية والسكينة هو ارتباطٌ لا بدّ منه؛ ذلك أنه دون هدايةٍ لا تكون هناك سكينة، حتى وإن توافرت الشروط أو الشرطان الخارجيان، أي الأمن من الخوف، والأمن من الجوع؛ إذ صحيحٌ أنّ الظاهر هو توقف حياة الناس ـ أفراداً ومجتمعاتٍ ـ على الأمن والكفاية؛ لكنّ التوجه الذاتي السليم هو الذي يُحوِّلُ تحقُّقَ الشروط الظاهرة إلى مصدرٍ للسكينة. وبقدر ما تكون السكينة فردية أو ذاتية، تصبح حالةً دائمةً من الثقة بالله وبالنفس وبالجوار. وتكون بذلك أحد عوامل التحقق على مستوى المجتمع؛ فالمجتمع المسلم لا يخلو بالطبع من مشكلاتٍ تتعلق بالأمن والكفاية؛ بَيْدَ أنّ الإحساس بالانطلاق من الهداية ينبغي أن يدفع باتجاه الحلول الاجتماعية للجميع؛ لأنّ عوامل التضامن والتكافل تصبح جزءًا من حالة الحراك والمبادرة للمعالجة وصنع الجديد والمتقدّم من أجل الجميع.

إنّ الهداية تكون بالطبع بالإيمان بالله، وأداء بقية فرائض الدين. ومفرد الدين من الفعل (دانَ) يقال: (دان له) بمعنى: خضع لسيطرته وطاعته. وهذا معناه أنه يسيطر على المؤمن إحساسٌ بأنه آمِنٌ في نفسه وبدنه وقوت يومه، ومعالجته لشؤون أُسرته. وأنه بالتوكل على الله سبحانه ينبعث لديه أملٌ، وتفتح له سُبُلٌ كثيرةٌ تتجه كلها إلى الأمن والرزق والإنجاز والنجاح. ولذلك جاء في الأثر النبوي أنّ حالات المؤمن كلها خير، سواء ألمَّ به مصابٌ ـ لأنه سيصبر ويأتي الفرج من الله ويُؤْجر ـ أو أُنعم عليه بنعمة؛ فإنه سيشكر فيزاد. فالسكينة التي يذكرها القرآن بعد حصول المصائب هي مجموع هذه الحالات أو المراحل الثلاث: مرحلة الهداية، ومرحلة نعمتي الأمن والكفاية، ومرحلة السكينة.

ولنمض من هذا المنطلق لتأثيرات الدين في حياة الأفراد والجماعات؛ فبالإضافة للسكينة ـ وهي فرديةٌ في الأساس؛ ولكنها يمكن أن تكون جماعية ـ إذا تحقّقت حالة التضامن والتآخي التي يطلبها الدين؛ يأتي الإسهام المباشر للدين المتبع في التأثير على الأمن والكفاية في المجتمع؛ إذ لا ينبغي أن ننسى أنّ حالة الهداية نفسها تتضمّن عقوداً وعهوداً للتضامُن والأخوة: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: 10]، والمسلم يقابل المسلم وغير المسلم بالسّلام، ويشعر بضرورة الإصغاء إلى دواعي رحمة الله سبحانه وهي تعني الرحمة بالعباد؛ فالأمن لدى المؤمنين أو في مجتمعاتهم هو صناعةٌ يشركهم سبحانه وتعالى معه في توفيرها. وكذلك الأمر بشأن الكفاية: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج: 23، 24]. فاعتناق الهداية الإسلاميّة يقتضي أداء الفرائض، وفي مقدمتها فريضة الزكاة التي تصبح واجباً على المسلم في ماله، ولا شكّ أنها تسهم في تحقيق الكفاية، وسدّ الاحتياجات العاجلة، وتنشر حالةً من الطمأنينة بين الفقراء أنهم ليسوا متروكين، وأنّ إخوانهم لن ينسوهم. فلدينا ـ من جهةٍ ـ تكليف المؤمن بنشر الأمن بين الناس من نفسه ومن يمُونُه وينفق عليه، ولدينا من جهةٍ ثانيةٍ الإسهام بفعالية وبتأثيرٍ من الدين أيضاً في تحقيق الكفاية.

ثم إنّ لدينا من تأثير الدين في الأفراد والمجتمعات إحداث رؤية جديدة للعالم لدى المؤمن والمسلم؛ فبدلاً من التنازع والحروب بسبب الاختلاف في المصالح والمطامح والاهتمامات؛ يدعو القرآن الكريم المسلمين إلى «التعارف» مع البشر الآخرين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: 13]. والتعارف له عدة جوانب كلها مخمدةٌ للنزاعات؛ **أولها:** المعرفة؛ فالإنسان عدوّ ما جهل، فإذا عرفتَ الآخرين ـ أفراداً أو جماعات ـ فلا شكّ أنّ الانطباع السلبي تجاههم سوف يخف، هذا إن لم تحدث انطباعاتٌ إيجابية. **وثاني الجوانب:** تبادل البيان والتبليغ بما عندك، وما تريد وما عند الآخر وما يريده؟ وهذا يعني بالتبع التفاوُض السلمي والتنازل المتبادل. **وثالث الجوانب:** فتح آفاق

جديدة مع الآخر في الدين والثقافة والتجارة والمصالح والأفكار؛ إذ كل ذلك ينطبق عليه مفهوم المعرفة المدهش الذي استخدمة القرآن. ثم لا ننسى أنّ التعارف يتصل بالمعروف، وهو الفضيلة الكبرى التي يريدنا سبحانه أن نتعامل مع الناس من خلالها، بل وأن نبادر إلى إسداء المعروف إليهم؛ لأنه «أمرٌ بالمعروف». ومما يدل على تقصُّد السلام بين الناس من وراء ذلك قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: 8]. كل أسباب الحروب ينبغي أن تنتهي إذن، فلا يبقى إلَّا حق الدفاع في حالتي الاضطهاد الديني، والإخراج من الديار؛ إذ أعزُّ أمرين على الإنسان: الدين والموطن. وبذلك فإنّ دعوة التعارف تغيّر بالفعل «رؤية العالم» لدى المؤمن، ويمكن إذا تحققت بالفعل أو جرى التفكير فيها بجديّة أن تؤثّر في سلامة الدين، وسلام العالم.

ولننظر في لفتةٍ أخيرة إلى تأثير الدين في الأفراد والجماعات؛ فمنطق القرآن أنّ «الحياة الآخِرة» هي الحياة الحقيقية، وأنّ أعمال الإنسان في الحياة الدنيا هي السبيل للنجاة في الآخرة. وبذلك تتغيّر رؤية الإنسان المؤمن إلى هذه الدنيا وإلى العمل فيها، ويصبحُ الخيرُ والمعروف والعلاقةُ الحسنةُ بالقريب والبعيد؛ كلُّ ذلك عماد الحياة والعيش والتفكير بالمستقبل. ثم إنّ الأعمال الكبيرة في هذه الدنيا إنما هي عند الكبار أعمالٌ احتسابية. وفي ذلك كلّه تحويلٌ للحياة أو إعطاؤها معنىً لا يكون لها إلّا بهذه الفلسفة للوجود. وقد اختلف العلماء في زيادة الإيمان ونقصانه بناءً على ظواهر القرآن. وعَدُّ الإيمان تصديقاً لا يزيد ولا ينقص فيه إغراءٌ من الناحية العقلية؛ بَيْدَ أنّ الزيادة والنقصان بالاحتكام إلى العمل الصالح ـ دونما مساسٍ بأصل الإيمان ـ فيه إغراءٌ كبير أيضاً، وهذا مظهرٌ مهمٌّ آخر من مظاهر تأثير الدين في حياة الأفراد والجماعات.